

عودة وضّاح اليمن

عبد العزيز المقالح

مكتبة اليمن الإلكترونية

وما الدنيا سوى وطني، إذا لم
أجدّه، لم أجدُ فيها نصيبا
ولو أني حللتُ ربوعَ نجمٍ
هممتُ بهِ إلى الوطنِ الوثوبا

(الزُّبيري)

توثيق /

فايز محيي الدين البخاري

عودة وضاح اليمن

عاد وضاح من غربته لكي يرى حبيبته
(روضة) فإذا هو يفاجأ بها مجذومة

ضائعاً - كنتُ - محترقاً، أتمزَّق في قبضة اللَّيلِ والشَّجنِ البربريِّ
الرَّماديِّ، أصرخُ، أرحلُ في سفنِ الحزنِ، تحملني في بحارٍ من اليأسِ، أذكرها
تتعذَّبُ بعدي، تواجهُ أعداءها في ثباتٍ. أمدُّ يدي نحوها، تتراخى يدي
تحت رعبِ المسافاتِ، أبكي، يطيرُ بي الدمعُ، يرجعُ بي نحوها.. يا لرحٍّ من
الدمعِ يحملني في حنانٍ رحيمٍ!
(أتساءلُ أينَ الطريقُ إليها، فأسمعُها تتكلَّمُ):

- مَنْ أنتَ؟ ما تبتغي من فتاةٍ عجوزٍ بلا زادٍ أسلمها قومُها
للمجاعةِ والموتِ، باعوا صفائرها للظلامِ حبلاً، وناموا على عتباتِ
المواعيدِ يقتسمونَ كؤوسَ المهانةِ في الخُلُمِ، يختصمونَ على القيدِ، يحتطبونَ
بوادي الثعابينِ، يستمطرونَ الغبارَ العقيمَ؟
(تتلقَّتْ مدعورةً، ثمَّ تصمتُ.. تنحبُّ وهي تسألُني):

- من تكون؟ متى جئت؟ كيف تسللت عبر الظلام إلى وُحدي؟
أنا مَبوذةٌ أتضوّرُ جوعاً، وحوالي مئاة الموائد تمتد للعاهرات، بحارٌ من
(النفط) تسبح فيها الجواري، ويغرق وجه الجزيرة منتحباً، والمداخل مقفلة،
والمشائق تُطوى لكيما تقام، تقام لِتُطوى، وتفجعني بأعزّ البنين..
بأشجعهم. تتألاً عند الضحى بقع الدّم، تلمع أكفأهم، وتميل الجباه إلى
الشرق مذبوحةً. ليس لي بعدهم أمل، عُذ إن اسطعت؛ فالصائدون
حوالك كُثُر، ومن حولنا الرمل مقبرة والصّحارى جحيم!
(أتمالك نفسي من الموتِ خزيًا، ويمتد صوتي حزينا):

- أأهربُ عنك؟ وأنتِ نصيبي من الأرض والشمس والقمر المتألي
في وطني واغترابي، ولونُ اكتئابي وَضحكي، وبيتي ومقبرتي وسحابي. أنا
أنت.. هل تذكرين؟ أنا أنتِ، وَضاح، يا شِعْر وَضاح، يا قلبه القُروي
اليماني المعلق في الأرض. لم يغترب ظلّ يخفق للفجر حول الجبال، وفي
الحقل يحرس مزرعة الشمس، ينمو ويورق، يكبر في السنديان الجديد -
القديم.

تحت جلدي تعيشين، نبكي معاً ونصلي، نجوع ونعري، نجدف في
الله والشعب، يضبطنا عسس الليل والمخبرون؛ فأكتبُ اسمي، وأخفيك
تحت دمي، لا يشكون أنك كنتِ معي نتشمّم رائحة الخبز، نعبرُ أرصفة
المال. أعلم أنك معروفة، وأنا وَحدي الرّقم الضائع الاسم. لكنني مشفقٌ

أَنْ يَرُوكَ تَنَامِينَ فِي الطَّرَقَاتِ، وَلَا زَادَ، لَيْسَ يَغْطِيكَ غَيْرُ خِيوطٍ تَبَقَّتْ لَنَا
مِنْ بُرُودٍ يَمَانِيَّةٍ، مَجْدُهَا لَا يَرِيمُ.

(تتراجعُ، تُخْفِي مَلَامِحَهَا فِي الْحَصِيرِ الْمَعْفَرِ، تَصْرُخُ فِي دَهْشَةٍ):
- أُوهُ، وَضَاحٌ لَا تَقْتَرِبُ، صَرْتُ مَجْذُومَةٌ، يَتَسَاقُطُ لَحْمِي عَلَى
الْأَرْضِ، تَأْكُلُهُ الدُّودُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، يَتَقَيَّحُ أَنْفِي صَدِيداً، فَمَي يَتَشَقَّقُ،
كَقَيِّ مَثْقَلَتَانِ.. لِمَاذَا تَأَخَّرْتَ؟ هَلْ شَغَلَتْكَ عَنْ الْأَهْلِ وَالْأَرْضِ (أُمُّ
الْبَنِينَ^(١)) الْجَمِيلَةُ أَمْ إِنَّهَا احْتَجَزَتْكَ مَعَ السَّنْدِبَادِ بِحَارٍ مِنَ الْعَشَقِ فِي
رُدْهَاتِ قُصُورِ الْحَرِيمِ؟

(أَتَكْوِّرُ دَاخِلَ نَفْسِي وَأَهْمَسُ فِي خَجَلٍ):
- لَا وَعَيْنِيكَ، يَا (رُوضَةَ) الْحَبِّ، مَا خَنَتْ عَيْنِيكَ، بَلْ كُنْتُ
مَغْتَرِباً رَهْنً صَنْدُوقِ خَوْفِي يَحْمِلُنِي الْفَقْرُ وَالْجُوعُ، عَبَرَ شَوَارِعَ بَغْدَادَ، فِي
(تُرْبِ^(٢)) النَّيْلِ، بَيْنَ قُرَى الشَّامِ؛ أُبْحَثُ عَنْ هَدِيدٍ يَتَعَرَّفُ حَزْنِي، يَدُلُّ
عَلَى مَحْنَتِي وَانْكَسَارِي، وَكَانَتْ دُمُوعِي تُغْنِيكَ، تَكْتُبُ شِعْراً يُنَاجِيكَ: يَا
(رُوضَةَ) الْحَبِّ، يَا أُخْتَ (بَلْقَيْسَ) يَا أُمَّهَا يَا حَفِيدَتَهَا الْبُكَرَ، يَا شَمْسَنَا فِي
اللَّيَالِي، وَمُصْبَاحَنَا فِي الظَّلَامِ الْبَهِيمِ.

كَمْ صَرَخْتُ لَعَلَّ نِدَائِي يَمُرُّ بِدَارِكَ يَوْمًا، فَيَمْتَدُّ شَوْقُكَ يَنْقُدُنِي مِنْ
مَتَاهَةِ لَيْلِ الدُّوَارِ الَّذِي طَالَ، يَوْقُظُنِي مِنْ سُبَاتِ التَّشَرُّدِ. أَرْصَفُهُ اللَّيْلُ فِي

(١) زوج الوليد
(٢) مقابر النيل

مدنٍ لا تكونين فيها تُطارِدُنِي. وسمعتكِ ذاتَ مساءٍ تنادينَ، جئتُكِ منفرداً
في بساطٍ منَ الدمعِ والشوقِ. شِغري سلاحِي، ومنَ قبلُ كانَ كسائي
وقوتي؛ أفصلُّهُ في الشتاءِ رداءً وفي الصيفِ أشربُهُ حينَ يشتدُّ بي ظمئي،
ويحاصرُنِي في الهجيرِ السَّرابُ / السَّديمُ.

(تتململُ في كوخِها، الموحشِ الجذبِ، تُطلقُ صرخةً يأسٍ، وتطعنُنِي
بالسُّؤالِ):

– لماذا تأخَّرتَ؟.

إني هنا جُتَّةٌ نبذَتْها المدينةُ تنتظرُ الدَّفْنَ، حتى الطيورُ الجوارحُ – لا
لحمَ لي – نبذَتني، وطارَتْ بعيداً؛ كأني بقايا عظامٍ منَ الأمسِ لا تستطيبُ
الطيورُ لها مطعماً، فابتعدُ.. يوشكُ اللَّيْلُ يهبطُ، إني على موعدٍ والمواجيدُ،
أبكي بَنِي الذينَ أضاءوا وماتوا، أبوا أنْ يَفِرُّوا، فكانوا غذاءَ الذُّنابِ مساءً،
وعندَ الظهيرةِ كانوا غذاءَ الهشيمِ.

(لا أصدِّقُ أنَّ التي فتنَّتني، وكانتْ لنا الماءَ والخبزَ والعشقَ، تقضي
بآلامِها في الصَّحارى مقطَّعةَ الشَّعرِ، مجذومةٌ، تتساقطُ رُعباً؛ فأسألُ
عَيَّاناً^(١)، أسألُ وجهَ الطَّويلِ^(٢) – الذي كانَ يوماً طويلاً – أناجي بقايا
حجارةِ غَمَدانٍ؛ هل منَ دواءٍ لفاتنتي؟ ثمَّ أسمعُ صوتاً كما الرَّعدُ، يرحلُ بي
في عيونِ التفاؤلِ، ينتشلُ السُّفنَ الغارقاتِ على مرفأَي...).

(١) عَيَّان: جبل جنوب غربي صنعاء.

(٢) الطويل: جبلٌ شمال شرقي صنعاء على طريق مأرب.

- قيلَ لي: إِنَّ عَرَافَ (وادي الجماجم)، أدركها مَرَّةً؛ فتنبأ أنْ
سوفَ تُشفى، وتنهضُ منْ دائِها؛ حينَ تكشفُ عنْ ساقِها، ثمَّ ترقصُ
عاريةً فوقَ صرحِ الدِّماءِ وتغسلُ عارَ التَّسْوُلِ والقهرِ بالنارِ، ثمَّ تقدِّمُ منْ
لحمِ أعدائها وجبةً للوحوشِ الأليفةِ والطَّيْرِ، تَقْطَعُ منْ عَضَلاتِ الخليفةِ،
والحرسِ المَلَكِيِّ شواءً؛ تقدِّمُهُ للجِيعِ منْ الشعبِ في حفلةِ البُرءِ.. لكنْ
متى؟ والخليفةُ ماتَ، وما دَهَّمْ غيرُ شِعْري على موتِهِ، والنَّوارسُ والبحرُ
مَسْجُونَةٌ في القماقمِ، والشمسُ مجذومةٌ والنهارُ العظيمُ.

١٩٧٣م

مكتبة اليمن الإلكترونية

الشمس لا تمرُّ بغرناطة

إلى العمال والفلاحين في شمال الوطن

من يبكي في الظُّلْمَةِ؟

من يتحسَّسُ جُثَّتَهَا خلفَ جدارِ اللَّيْلِ؟

لا يدري آخرُ شيخٍ ودَّعَهَا

منذُ متى والشرقُ يقيمُ بـ(غرناطة)

مأتمُّه اللَّيْلِ الأَبْكَمُ.

يتعذَّبُ،

ينثرُ فوقَ قبورِ الموتى دمعَ الشوقِ

إلى مُهَرَّتِهِ المفقودة..

كانتْ في لونِ الصبحِ جمالاً،

يُسْرِجُهَا في الفجرِ

يطيرُ بها،

تركضُ فوقَ المدنِ النَّعْسانَةِ..

تستيقظُ،

تغسلُ وجهَ الأرضِ بعينيهما الدّافئتين،

تتمرجحُ خلفَ ضفائرها سُحْبُ القرية،

تمشي.. تتحرّكُ،

يجري تحتَ حوافرها نهرُ العَرَقِ

الأسيانُ،

تسيرُ بهِ سفنُ العُمّالِ المكدودين..

يبنونَ قصوراً وجسوراً للمال،

يشربُّه،

يشربُّهم في علبِ اللَّيلِ كبارُ الملائك!

وتنامُ جوعاً أطفالُ العُمّال!

المهزَّةُ تركضُ نافرةً،

تتراجعُ..

تقطعُ رحلتها نحوَ الشرقِ، تصيحُ:

لماذا يا مدناً نائمةً عَجْفاءَ.

منْ لا يعملُ يأكلُ فاكهةَ الشمسِ

ويشربُ كأسَ الأرضِ،

ومن يعملُ لا يجدُ الكِسْرَةَ
لا يجدُ الماءَ؟!!

* * *

كانت تضحكُ،
تتمهِّلُ وَهْيَ تسيِّرُ على حقلِ الحنطةِ،
تنضجُ عيناها..
عيناها الموقدَتانُ،
تنتظرُ الفلاحينَ الجوعى
حينَ يعودونَ بِهْ نحوَ موائدِهم خبزاً،
ثمَّ تعودُ لتبكيَ حينَ ترى السَّادةَ
يستولونَ على الحنطةِ
والأرضِ معاً!

لا شيءَ يسيِّرُ إلى الأكواخِ
غيرُ الدَّمْعَةِ، لا شيءَ..
تغضبُ..

تَشْهَرُ سيفَ النارِ عليهم
ينجحرُ السَّادةُ خلفَ قصورِ الرُّعبِ،
عنهم.. يتقدَّمُ جيشُ الجوعى لملاقاةِ النارِ،

تراجع.. تُخفي نارَ السَّيْفِ
السَّيْفُ يصيرُ سؤالاً يتمدّد فوق الأرضِ
وفوق البحرِ.

ما يُبقي هذا الخيطَ - القبرِ الواهنِ
الجائعِ يحرسُ قَصْرَ المتخَمِ،
المأسورُ يدافع عن ظلِّ القَيْدِ؟!
يا للمهزلةِ البشريّةِ!

* * *

من يبكي في الظُّلْمَةِ؟
من يتحسّسُ جُثَّتَها خلفَ جدارِ اللَّيْلِ؟
(غرناطةٌ) لا شمسَ لها..
مطفأةٌ كلُّ قناديلِ اللَّيْلِ.
فمتى يلمعُ في الأفقِ المعتمِ نجمٌ
يتحدّى،
يتحوّلُ شمساً..
قمرًا؟
كلُّ الأقمارِ احترقتْ في الرّحلة..
الدَّربُ رمادٌ.

فانطلقى يا مُهَرَّتَنَا
انطلقى،
يوشكُ أَنْ يدهمَنَا ليلُ اللَّيْلِ الْآخِرِ،
يُسَلِّمَنَا السَّجْنَ إِلَى السَّجْنِ،
تَعُودُ عِقَابُ سَاعَتِنَا لِلْخَلْفِ!
يا مُهَرَّتَنَا انطلقى..
انطلقى.

أَوَّلَ مَايُو ١٩٧٤م

مكتبة اليمن الإلكترونية
توثيق/
فايز محيي الدين البخاري

من حَوَلِيَّاتِ يوسف في السجن°

١٩٦٧

حينَمَا ابتَغَا عَنِي الحُزْنَ مِنْ وَطَنِي،
وَاشْتَرَى وَجْهِي الخَوْفُ،
كَانَتْ بِلَادِي تَسَافِرُ فِي القَحْطِ،
تَنْتَظِرُ المَطَرَ الخَبَرَ..
لَسْتُ الوَحِيدَ الَّذِي بَاعَهُ أَهْلُهُ
بِدِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ،
كَمْ فَتًى بَاعَهُ أَهْلُهُ بِرَغِيفٍ،
وَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ بِحَفْنَةٍ قَمْحٍ..
تَسَلَّمَهَا المَشْتَرُونَ

° حين كتبت هذه القصيدة كان الصديقان الشاعران.. عبد الودود سيف، محمد المساح في سجن القلعة بصنعاء بتهمة أنهما يكتبان الشعر الحديث. وقد أهديت القصيدة إليهما تضامناً وتحية.

وغابوا مع اللَّيْلِ بعدَ رحيلِ النهارِ.

١٩٦٨

حينَ جاءتْ إلى الجُبِّ قافلةٌ

ومنَ الجُبِّ أنقذني أهلُها،

ورأيتُ السماءَ

ضَحِكْتُ..

كأنيّ منَ رَحِمِ الأرضِ جئتُ،

وها أنا ذا الآنَ في الجُبِّ

في رَحِمِ الرُّعْبِ،

أصرُخُ في وحدتي:

- ليتَّهم تركوني هنالكَ في الجُبِّ

يشربُني ماءؤه،

ترتدني الطَّحالبُ،

والعشبُ يأكلُني،

والصدى المتوحِّشُ يشرُّني،

تسلِّقُ وجهي

جموعُ العناكبِ،

تنسجُ حولَ فمي بيتَها،

وتقيمُ على أرضِ عيني المطازَ.

١٩٦٩

آه بينَ الجبالِ المحاطةِ بالموتِ
واللَّيلِ،
ترقدُ (صنعاءُ) فاتنتي،
يستبيحُ الغزاةُ ملامحَها؛
و(العزیزُ) يداعبُ قِطَّتَهُ في هوانٍ
ويحصي (الرِّبالاتِ)
يخفي المفاتيحَ خلفَ سراويلِهِ،
والجياعُ يبيتونَ منَ حولِ قَصْرِ (العزیزِ)
عُراةً
يصلُّونَ،
ينتظرونَ سُدىً،
يطبخونَ قدورَ التَّواكلِ
والانتظارِ.

١٩٧٠

لم تكنِ قريتي قبلَ مصرعِها،

لِتُصَدَّقَ أَنَّ (العزیزَ) خَصِيٍّ،

یتاجرُ فی عرضِ أبنائِها

و(العزیزة) فی القَصْرِ

تنهشُ فی عرضِهِ وتتاجرُ،

تزني بأولادِهِ.. واحداً

واحداً،

وبأحفادِهِ،

بالعساكر،

بالغرباءِ.. المقيمينَ

والعابرينَ،

وكانَ يراها يورِّقُهُ فِعْلُها

فَيَصُبُّ مخاوفَهُ وانكساراتِهِ

فوقَ أضلاعِنَا لهباً وسيطاً،

وأجهزةُ الانتقامِ تصادرُنَا

وتوزِّعُ أكبادَنَا

وجماجمَنَا للدَّخيلِ.

١٩٧١

- نحنُ في السجنِ

أرواحنا في الزَّنازن،

- لا تبتئس..

لست وَحْدَكَ في السجن،

كلُّ الحقائقِ

والشجرِ البَكرِ في السجن،

والشمسُ في السجن،

حتى الطيورُ التي عَبَرَتْ أَفْقَنَا

أصبحتْ مثلنا في القيودِ سجيناً..

هكذا كانَ يهمسُ لي

في البطاقةِ صوتُ الصديقِ

الذي ظلَّ يحملُ وجهي، وصوتي

وكانَ له ظلُّ عيني،

شَوْقُهُما للنَّهاراتِ والمستحيلِ.

١٩٧٢

حينَ كانَ الحديدُ يَعَضُّ يدي

يتورَّمُ في قدمي،

كنتُ أعلو به،

أتسامقُ مئذنةً للصمودِ

وساريةً للإنارة..

لكنَّ مئذنتي انكفأت،

والسَّواريُّ جَفَّتْ مشاعلُها،

والسُّنُونِ اسْتَطالَتْ بنا..

مَنْ مِنَ القَبْرِ يَحْمِلُنِي للحَقولِ البعيدةِ

يُرْجِعُنِي؟

طائري يعشقُ الفَجَرَ،

يهوى الحياةَ طليقاً،

ويكرهُ وجهَ جدارِ الظلامِ..

تعذِّبُنِي لحظةُ الانطفاءِ،

تعذِّبُنِي ساعةُ الارتحالِ.

١٩٧٣م

حَصَّصَ الحَقُّ،

هل تستطيعُ القيودُ على شفتي

أَنْ تَبْلُغَها أَنِّي قد قَبِلْتُ الشُّروطَ..

مَنْ الآنَ

سوفَ أراودُها أنا عنِ نفسِها،

وأشُقُّ القميصَ

بأنفاسي الداميات الأظافر،

أعرفُ أنَّ محاسنها ذُبِلَتْ

والغضونَ تحاصرُها،

يقضمُ الدُّودُ أثداءها..

شفتي تتوقَّى العجائزَ،

لكنَّها السَّنَوَاتُ العجافُ - هنا -

عَلَّمَتْنِي بِالْأُزْدِّ لِرَاغِبَةٍ ظَهَرَ وُدِّي؛

لَأَسْلَخَ مِنْ ظِلْمَاتِ الزَّانِنِ رُوحِي،

وَأَنْتَشِلَ الْجِسْمَ مِنْ قَسْوَةِ الْاِغْتِيَالِ.

١٩٧٣م

السَّفر في ذاكرة الأبجدية

إلى روح بطل ثورة سبتمبر
الشهيد علي عبد المغني

- ١ -

س: "ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً"،

ب: "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول"،

ت: "تأخرت أستبقي الحياة، فلم أجد

لنفسي حياة، مثل أن أتقدماً"،

م: "ما لجرح يميت إيلاً"،

ب: "بنفسي تلك الأرض، ما أطيب الرُّبا

وما أحسن المصطاف، والمتربعا"،

ر: "رضي الناس بالهوان، فهانوا".

- ٢ -

شاحبة أوراق الورد على أشجار
الشمس

شاحبة كل قناديل الذكرى
عارية من ورق النور
وخابية تحت عيون الأهل
وحول وجوه المدعوين
موسيقى الحفل جناز
إيقاع الرقص نشار.
ميّنة كل الكلمات المسموعة
والمكتوبة،
كل حروف الأشياء،
شاحبة
ميّنة كل الأضواء.

- ٣ -

مذ ودّع (غرناطة) فارسها الأوّل
ممتطياً سحْب الشوق
وممتشقا برق الثورة..

يَمَّمْ شَرْقاً

كَانَ بَرِيقُ مَعَابِدِ (بَلْقِيسُ)

أَعْمَدُهُ الضَّوءُ الْقَمَرِيَّةُ

تَحْمِلُهُ نَحْوَ الشَّرْقِ..

تَطِيرُ بِهِ..

مَنْتَصِباً،

مَا زَالَ يُغْذُّ السَّيْرَ إِلَى غَابَاتِ

الشَّمْسِ

لَمْ يَرْجَعْ..

لَمْ يَتَكَلَّمْ..

وَجْهَهُ مَدِينَتِنَا الْأَسْيَانُ

يَتَّبَعُ ظِلَّ الْفَارِسِ فِي النَّارِ

وَفِي الْمَاءِ،

يَتَفَجَّرُ فِي اللَّيْلِ دُمّاً

فِي الصُّبْحِ دُمُوعاً..

شَاحِبَةُ أَقْوَاسِ الزَّيْنَةِ،

وَالْكَلِمَاتِ

شَاحِبَةُ كُلِّ الرَّايَاتِ.

- ٤ -

(غرناطة) يا سيّدة الأحران
يا أمّ الشهداء المنذرين..
في ذكرى يوم الميلاد الساطع
ميلادك أنت
يوم تجلّى وجهك للناس،
في ذكرى يوم الفرح الناصع..
مُدّي كَفْلكِ للعرقى من أبنائك،
والمنفيين
للموتى
والمنسيين.

هذا وجهُ النائِم تحتَ مراثي (صرواح)
يشرخُهُ سيفُ النّسيانِ
تدهسُهُ عَرَباتُ اللَّيلِ
وتعبِزُهُ أقدامُ برابرة الصّخراء.

- ٥ -

س: "سارت سنة والثانية بتلحق

الله يصيب، من بيننا، بيمحق

ب : بالله عليك، يا طيرُ يا رمادي

فُكَّ الجناح، ورُدَّني بلادي

ت : توبةً من الجنس اللطيف توبةً

يغيّر المحبوب، مثل ثوبه

م : من روسيا للصين للفيتمين

عُصْبَةٌ على من فَرَّقَ المحبين

ب: بندرُ عدنُ يا ليتني معدنُ

أو ليتني جنب الحبيب مخزنُ

ر: روعي معك والقلب في انتظارك

والصدْر، صدري مرقدك ودارك^(١)

م١٩٧٣

(١) المقطع الأول من ديوان الشعر العربي القديم والحديث، والمقطع الأخير من الفولكلور الشعبي اليمني.

أحزان الليلة الأخيرة من حياة عمارة اليمني^(١)

(الزَّمانُ: تساوى النهارُ مع اللَّيلِ، في ندرةِ الضوءِ، لكنَّهُ كانَ ليلاً ثَقِيلَ
الخطى عابساً. والمكانُ: ذراعٌ مِنَ الأرضِ، زَنَانَةٌ يتكوَّرُ فيها السَّجِينُ الذي
سيقَدِّمُهُ الشَّعْرُ للموتِ.. تركضُ أشجَانُهُ عبرَ لونِ السَّوَالِ):

لماذا تعرَّبتُ عنُ وطني
وهجرتُ (زَبِيدَ^(٢)) التي يتنازعني حُبُّها
والحنينُ على نُطْعِ الموتِ؟

ألمحُ شُرَفَاتِهَا والطفولةَ

(١) ترك الشاعر (عمارة اليمني) بلاده اليمن فراراً من الحكم الفاسد، وجعل من مصر وطنه الثاني، وفي عام ١١٧٥م أعدم الشاعر شنقاً بتهمة التحريض الشعري على قلب نظام الحكم (٢) زبيد: من المدن التاريخية في اليمن، كانت العاصمة السياسية لليمن في عصر (عمارة) وقد تلقى فيها علومه، ومارس شطراً من نشاطه الأدبي والسياسي.

وجهَ الشبابِ النَّضِيرِ،

التَّأَمَّرَ والكَيْدَ،

أَسْتَرْجِعُ الأَصْدِقَاءَ الوَفِيِّينَ

والزَّائِفِينَ،

ورحلتنا في المساءِ الحزينِ.

السيوفُ يَمَانِيَّةٌ

والأكفُ منَ الهندِ راعِشَةٌ

لا تطيقُ المقابضَ..

منَ سيخِلْصُنِي منَ عذابِي وموتي؟

ومنَ يَنْزِعُ السيفَ عنَ عُنُقِي المستكينِ؟

أشتكي لـ(المَقَطِّمِ)

للنَّيْلِ حزني

وَمَسْغَبَتِي،

وأبثُّ المآذَنَ أنباءَ فاجعتي..

يرفضُ النِّيلُ صوتي

يديرُ (المَقَطِّمُ) لي ظَهْرَهُ،

والمآذَنُ لا تستطيعُ صَلَاتِي!

لماذا؟

لأني غريبٌ

و(مملكة النفط) ترسلُ خلفي جواسيسَها..

أينَ يخفي قصائدهُ؟

كيفَ يأكلُ؟

أينَ ينامُ؟

ألا يتحدثُ جسمي الهزيلُ

وثوبي المرقّعُ عن فاقتي؟

والحفونُ التي يتقرّحُ فيها الحنينُ

ألا تتحدّثُ عن سُهدها

والعذابُ؟

(ينحني الصوتُ، تنكسرُ الكلماتُ على فَمِهِ؛ وَهُوَ يهتُرُ منتحِباً).

ليسَ لي وطنٌ،

كنتُ أحسبُ أنَّ النجومَ

وكلَّ السّماواتِ والأرضِ لي وطنٌ،

غيرَ أنَّ النجومَ،

السّماواتِ والأرضَ

صارَتْ تضيقُ بجمجمتي

حينَ صارَ لها وطنٌ يتعدَّبُ في الأسْرِ،

يشقى بأبنائه،
يتشكّل في كلّ ثانيةٍ مآتماً
ويسافر في الرُعبِ مغترباً،
يشتكّي عُنُقَ أَيْامِهِ
والخِاناتِ..
لا يجدُ المشتكى،
تتجمّدُ آهاتُهُ في عيونِ بنيه دماً،
وَهُوَ يُفْضِي بِأَحْزَانِهِ
وعذاباته للصخور - التراب.

(تتزاخُمُ أشجانهُ، تصغرُ الأرضُ في رأسِهِ.. أينَ يكتبُ آخرَ أصواتِهِ؟
الجبّالُ حصيّ، والتُّخُومُ زنازُنُ مقفلةٌ، والطريقُ انحناءاتٌ لا تستبينُ
معالمُها).

لم أكن شاعراً
يتمسّحُ بالكلماتِ الغليظة،
ينبشُ قلبَ القواميسِ
والكُتُبِ عن حكمةٍ،
يتهادى وراءَ المواكبِ منتفخاً..

كنتُ مبعوثَ (مأربَ) للنَّيلِ،

أَسأَلُ (إيزيسَ):

كيفَ استطاعتَ تلملمُ أوصالَ

معبودِها؟

عَلَّني أَتوصَّلُ يوماً لتجميعِ أوصالِ

معبودتي،

وأعيدُ لها وجهَها

والبكارةَ،

تاريخَها الخِصْبَ،

أبحثُ في سُرَّةِ الأرضِ،

عنَ عطرِ أيامِها

عنَ مدائنَ للحُلمِ

عنَ مُهَرَّةٍ تتمرَّجُ

خلفَ رموشِ السَّحابِ.

(تختفي في السماءِ النجومُ، تدثُّرها غيمةٌ بالكآبةِ والحزنِ. في الأرضِ يبتلعُ

الرُّعبُ لونَ المصابيحِ، وهوَ يقلُّبُ جُثَّتَهُ ضارِعاً).

أَتَحسِّنُ رأسي..

غداً سيفارقني!

تاركاً خلفه الحبَّ والحلمَ

والحزنَ

والوطنَ المستباحَ المهاجرَ في الدمعِ.

أشعاره سوفَ تغدو لأجفانه كفنًا،

وصلاةً لأطرافه..

منْ يصلِّي على جسدٍ ضاعَ

بينَ التفجُّعِ

والاغترابِ؟

المشانقُ في (ساحةِ الموتِ) منصوبةٌ،

ودمي هاربٌ منْ عروقي،

بلا كفنٍ عارياً.

أتساءلُ

والموتُ يدنو،

ويقتربُ الحبْلُ منْ عُنْقِي..

أيَّ جُرْمٍ أتيتُ؟

المخاوفُ تنهشُ في رئتي،

وغداً يُسلِمُونِي إلى الموتِ،

أهوى (زبيد)، وأعبدُها،

أَتَعَشَّقُ فِي الشَّمْسِ إِشْرَاقَهَا،
وَأَعَانِقُ لَوْنَ الْجَبِينِ الْمُقَاتِلِ،
وَالْبَسَمَاتِ الْأَسِيرَةِ.

(ساعةُ البرجِ تَعْلُنُ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ.. فِي رُكُضِهِ الدَّاحِلِي لَمْ يَزَلْ ثَابِتًا جَزْعًا،
يَجْذِبُ الرَّأْسَ مِنْ قَبْضَةِ الْحَزَنِ وَالْخَوْفِ، يَطْلُقُ عَيْنِيهِ عِبْرَ حَدِيدِ الزَّنَازِنِ نَحْوَ
الْمَقْطَمِ).

(الْمَقْطَمُ) تَعْوِيدَتِي،

عِنْدَ أَقْدَامِهِ

تَتَمَدَّدُ سَيِّدَةُ الشَّرْقِ / قَاهِرَتِي

قَدَمَاهَا عَلَى النَّيْلِ،

وَالشَّعْرَاءُ الرَّفَاقُ يَغْنُونُ حَزَنِي لَهَا،

وَهِيَ فَاتِنَةُ الْقَلْبِ وَالْعَيْنِ..

كَيْفَ أَمُوتُ عَلَى صَدْرِهَا خَائِنًا،

يَشْطُرُّ السَّيْفُ بَيْنَهُمَا - بَيْنَ قَلْبِي وَعَيْنِي -

يَظِلُّ دَمِي يَتَسَاءَلُ عِنْدَ الضُّحَى

وَالظَّلَامِ:

لِمَاذَا تَغَرَّبْتُ عَنْ وَطَنِي،

وهجرتُ (زيدَ) التي باعني أهلُها؟
ألأني أخافُ من الموتِ؟
ها هو ذا يتعقبُني..

مَنْ مِنَ الموتِ ينقذُني،
يَنْزِعُ الحبلَ عَنْ عُقْتي؟
السُّيُوفُ - هناك - يمانِيَّةُ
والأَكُفُّ مِنَ الهندِ،
والأَرْضُ لَا تَزْرَعُ (النفطَ) فِي وِطْني
والجبالُ..
الجبالُ - هناك - رَمَادٌ.

(المَآذِنُ لَمَّا تَزَلْ تَنْهَدُ، فِي قَبْضَةِ اللَّيْلِ، تَحْتَ مَخَافِهَا تَذَكُرُ اللَّهَ أَكْبَرُ...،
وَالْقَادَةُ النَّاعِسُونَ بَظَهْرِ الْمَدِينَةِ يَسْتَصْرِخُونَ الْجِبَالَ، وَمَا زَالَ فِي صَمْتِهِ
جاثماً تَحْتَ جَمْرِ الْقِيُودِ يَصَلِّي).

لَكَ المَجْدُ..
لَمْ يَبْقَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ إِلَّا بَقِيَّةُ لَيْلٍ
سَتَرْحَلُ أَشْبَاحُهُ

نحو سردابها الأزلي العميق،

التحيات - كلُّ التحيات - للناس

للأرض،

والطيّات لهم ولعيني بلادي

لأحلامها

لا بتسامتها،

ووداعاً

وداعاً (زبيد) التي في المنام

رأيتك ضارعةً،

تتعذبُ عيناك في سجنٍ جلاّدها..

لن يطول الشتاتُ،

غداً نلتقي

حينَ تفتشُ الشمسُ مخدعنا

وتمدُّ ضفائرها فوقَ أشجارنا،

حيثُ ينبثُ ريشُ الصقورِ

الذينَ غداً سيعيدونَ للوطنِ الحبَّ

والأمنَ..

إني على أملٍ أغمضُ العينَ

في اللَّحظاتِ الأخيرة.

(الشوارعُ مدعورةٌ تتفاررُ، وجهُ المدينةِ ينهضُ من نومِهِ المتقطّعِ، مشنقةٌ
تأرجحُ في غبشِ الفجرِ، في حبلِها الكلماتُ الذبيحةُ خابيةٌ تتدلى،
العصافيرُ من خلفِها ترقبُ الشمسَ، حينَ تَحيءُ سترحلُ فوقَ مراكبِها،
وتشدُّ الرِّحالَ، بلا شِعْرِ انكسَرَ القلبُ.. ها هيَ عائدةٌ لبراري زبيد).

مكتبة اليمن الإلكترونية

تنهيدة يمانى على جسر النهر الجاف

كل من يزور (صنعاء)، لا
بد أن يمرّ بنهر
جاف يقطع المدينة إلى
نصفين، ويقوم
على ذلك النهر الترايبي
جسر قديم

كان الليلُ سجيناً
يتمددُ فوق سرير الأرض،
ويرضع ما أبقت سُحُبُ العامِ الشّتوي
من نيرانٍ في ضِرْعِ نجومِ الشرقِ
المطفئة،

والشمسُ امرأةٌ مسيّئةٌ

منذُ احتجَرَتْهَا الظلماتُ وراءَ الأفقِ،

وتحطَّم وجهُ الفرحِ الأخضرِ؛

لم يتغسَّلْ جفنٌ بالنَّوْمِ..

النومُ بلا نَوْمٍ

الشجرُ، الإنسانُ

الصخرُ، البحرُ بلا نَوْمٍ

النهرُ بلا نَهْرٍ،

الجسرُ يهاجرُ في الصَّحراءِ

صدئتْ عيناهُ منَ التَّحديقِ إلى الظلمةِ،

يتراجعُ مذعوراً،

آلافُ النظراتِ العطشى

تتساقطُ في عينيه على الوجهِ الحجريِّ،

شوكاً، إبراً

أسئلةً..

أينَ النهرُ؟

وأينَ الماءُ؟

يا جسراً في الصَّحراءِ

جَفَّ نخيلُ الفرحةِ

كلُّ عَصافيرِ مدينتنا نَفَقَتْ في الرَّمْلِ

فُرْسَانُ الشَّمْسِ يَمُوتُونَ..
فَمَتَى تَخْضُرُ الشَّمْسُ،
وَيَجْبُلُ غَيْمٌ بِالْأَمْطَارِ؟

.....

.....

.....

النَّوْمُ بِلَا نَوْمٍ
النَّهْرُ بِلَا نَهَرٍ
يَتَلَوَّى مَكْسُورًا
فِي رِثَةِ الْأَرْضِ يَغُوصُ الْجِسْرُ
الْقَدَمَانِ الْحَجَرِيَّانِ تَغُوصَانِ
الْصَدْرُ الطِينِيُّ الْأَصْفَرُ
يَدْرِكُهُ السَّأْمُ الْحَجَرِيُّ الْأَسْوَدُ
يَنْخَرُ فِي عَظْمِ الصَّخْرِ الدَّاءُ
يَنْزِفُ فِي وَجْهِ اللَّيْلِ دَمًا
قَبْرًا

نَعِشًا..

يَصْرُخُ لَا مَاءَ
وَاللَّيْلُ امْرَأَةٌ شَبَقِيَّةٌ

تتمطّي فوق سرير الأرض
النازفة الحبلى .

ميعادُ حضورِ الشمسِ تأخّرَ،

مَنْ يوقظُها مَنْ مرقدِها؟

مَنْ يوقظُها مَنْ مرقدِها؟

طالت رحلتنا في الليلِ الأَبكم

لا شمسَ لنا، لا زادَ

لا نهرَ.. ولا أبعادَ،

الجسرُ يغوصُ

يغوصُ

يغوصُ

النظراتُ العطشى تطعنُ وجهَ الأحجارِ

تطعنُها بالصمتِ الأحجارُ،

والليلُ دخانٌ يتمطّي

بحثاً عن نيرانٍ أخرى

عن صدرِ سريرٍ آخرَ

.....

.....

هل سيحيي الفجرُ؟

الطيبُ - هناك - فتاةٌ تحلمُ

بمجيءِ الفجرِ،

حبلى تلدُ الصلصالَ الأحمرَ

والأخضرَ،

تُرضعُ أشجاراً

ووروداً حمراءَ

لتجيءَ عصافيرُ الفجرِ،

وتبني مدناً عاشقةً

وجسوراً للحبِّ

وأنهاراً للماءِ.

وجه (ص ن ع ا ء) بين الحلم والكابوس

أيُّ وجهٍ أحدثُ عنه؟

لصنعاءٍ وجهانٍ،

أربعةٌ

ألفُ وجهٍ..

فصنعاءٌ خادمةٌ في بلادِ النَّجاشي،

ومنسيَّةٌ في سجونِ الرشيدِ،

وضائعةٌ في بلادٍ كثيرةٍ.

(أَسْكَنَ اللهُ آدَمَ الْجَنَّةَ، فَكَانَ يَمْشِي فِيهَا مُسْتَوْحِشاً لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ يَسْكُنُ إِلَيْهَا، فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ، وَإِذَا عِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ، خَلَقَهَا اللهُ مِنْ ضِلْعِهِ؛ فَسَأَلَهَا آدَمُ: مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: امْرَأَةٌ. قَالَ: وَلِمَ خُلِقْتِ؟ قَالَتْ: تَسْكُنُ إِلَيَّ).

صَادِقُ وَجْهِ صِنْعَاءَ

الَّذِي فِي الْمَنَامِ رَأَيْتُ مَلَاحِجَهُ..

خَارِجاً - كَانَ - مِنْ رَحِمِ اللَّيْلِ

مَمْتَطِياً مُهْرَةَ الْفَجْرِ،

فِي كَفِّهِ الشَّمْسُ تَخْتَالُ فِي ثَوْبِهَا،

وَنُخِيلُ الْجَزِيرَةِ..

أَسْبَاطُهَا يَسْجُدُونَ حَوَالِيهِ..

هَذَا إِذْنُ وَجْهِ صِنْعَاءَ

وَجْهِ الَّتِي عَذَّبَتْ كُلَّ عَشَّاقِهَا

وَاسْتَكَانَتْ لَجَلَادِهَا.

أَطْلُقُوا قَدَمِي مِنْ حَبَالِ التَّشْرِدِ

حِينَ أَعُودُ إِلَيْهَا

ادفنوني على صدرها مشخناً
أو قتيلاً،

أنا بعضُ عشاقِها
لستُ وَحْدِي العَشِيقُ،
فما أَكثَرَ الواقِفينَ على بابِها:
الذي يَحْمِلُ الرُّوحَ في كَفِّهِ
والذي يَحْمِلُ الرَأْسَ مَقْطُوعَةً.

كنتُ أَفْقَرُ عَشَّاقِها،
أَبْجَلَ الواقِفينَ على البابِ
كانتُ قِصائِدُ شِعْري هَدِيَّةَ عُمْري
لها يَوْمَ مِيلادِها
ليلةَ العُرْسِ.

مذْ فَقَدْتُ في الرَّبِيعِ ضِفائِرها
وفِصُولي شَتائِيَّةً،
وَدِياري هِيَ الحُلُمُ
مَنْ أَجْلِها أَسْكُنُ الشَّعْرَ
والشَّعْرُ يَسْكُنُنِي

يَتَخَلَّقُ عَبْرَ دَمِي،
تَحْتَ جِلْدِي خَلَايا وَأَنْسِجَةً.

وجهُ صنعا

الذي لا يشيخُ

الذي لا ينامُ

الذي لا يعاشرُهُ المستحيلُ،

الذي في المنامِ رأيتُ ابتسامتهُ

تَشْهَرُ السيفَ في وجهِ أحزاننا،

تتحدَّى سجونَ الإمامةِ

والحرسَ الخاصَ،

تنشرُ سُحْبَ التفاؤلِ

فوقَ العيونِ التي يزرعُ الجذبُ أجفانها

خشباً

ورمالاً من اليأسِ ينقذني..

في النهارِ الكليلِ

يرافقني في المغاورِ شمساً،

وفي اللَّيلِ

يركضُ في خيمتي قمراً،

كلّما اشتتُّ للوطنِ المستباحِ النجوم

نشرتُ خريطتهُ في دمي

فوقَ جمجمةِ الشَّعرِ،

في عَظْمِهِ،

وتَحَسَّسْتُ جَرَحَ الْقُرَى

والمدائن..

فاستيقظي يا جماهيرَ (وادي القُرَى)

ها هي الآنَ تبتسمُ

الآنَ تخرُجُ الرِّفْضَ

تفتَرعُ الفرَحَ الأزليَّ على صخرِ

أوجاعِنَا،

تنحطِّي المسافاتِ ما بينَ صحرائِنَا

والحدائقِ،

ما بينَ أزهارِ (دجلة) والرَّمْلِ..

شبهُ الجزيرةِ ينعثُ الآنَ،

يكتبُ تاريخَ ميلادِهِ

الفقراءُ الذينَ يبيتونَ جوعى

يصادرُ سُفْنَنَ قناديلِهِم ملكُ اللَّيْلِ،

تنهضُ مَنْ نومِها الجُرُزُ الغافياتُ..

الخليجُ يحدِّقُ في دهشةٍ

والنخيلُ تطلُّ بأعناقِها.

(وَلَمَّا دَخَلَتِ الْحَيَّةُ الْجَنَّةَ، خَرَجَ مِنْ جَوْفِهَا إِبْلِيسُ، فَأَخَذَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي
نَهَى اللَّهُ عَنْهَا آدَمَ وَزَوْجَتَهُ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى حَوَّاءَ، فَقَالَ: انْظُرِي هَذِهِ
الشَّجَرَةَ.. مَا أَطْيَبَ رِيحُهَا، وَأَطْيَبَ طَعْمُهَا، وَأَحْسَنَ لَوْنُهَا، فَأَخَذَتْ حَوَّاءُ
فَأَكَلَتْ مِنْهَا، ثُمَّ ذَهَبَتْ بِهَا إِلَى آدَمَ، فَقَالَتْ: انْظُرِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ.. مَا
أَطْيَبَ رِيحُهَا، وَأَطْيَبَ طَعْمُهَا، وَأَحْسَنَ لَوْنُهَا؛ فَأَكَلَ مِنْهَا آدَمُ فَبَدَتْ لَهُمَا
سَوَاتُهُمَا).

وَجْهٌ صِنْعَاءُ كَانَ الْفَنَارَ

الْمَنَارَةَ

وَالْعِشْقَ،

وَاللَّهَبَ الْمُتَوَهِّجَ فِي لَيْلِ شَبِّهِ الْجَزِيرَةِ،

لَكِنَّهَا انْكَفَأَتْ،

لَمْ يَعُدْ وَجْهُهَا وَجْهَهَا!

أَيُّ وَجْهِ أَحَدْتُ عَنْهُ؟

لَصْنَعَاءُ وَجْهَانِ،

أَرْبَعَةُ

أَلْفُ وَجْهِ،

فَصْنَعَاءُ خَادِمَةٌ فِي بِلَاطِ النَّجَاشِي

وَمَنْسِيَّةٌ فِي سَجُونِ الرَّشِيدِ

وضائعةٌ في بلادِ العبيدِ،

بكلِّ المنافي تجوعُ

تكابدُ شُطَّانَهَا

والمرافئِ ظامئةٌ..

وهيَ ترقبُ شمسَ المخاضِ

بلا وجهٍ استلبوه،

وكانوا يبيعونهُ في المزاداتِ..

يختصمُ القاتلُ / الذئبُ،

والثعلبُ / اللصُّ:

منَ سينادي عليه؟

ومنَ يقبضُ الثمنَ البَخْسَ؟

يغرقُ (مأربُ) في دمعِهِ،

وحوائطُ (عَمْدانَ) تحني مداخلها خجلاً..

كيفَ تُشْرِى

وتُبتاعُ صنعا الحجارَةُ،

والشمسُ

والماءُ؟

كيفَ يتاجرُ في شرفِ الأمِّ،

في عَرْضِها الإِبْنُ؟

كَيْفَ يَسَاوِمُ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ مِنْ لَحْمِهَا،
فِيهِ مِنْ جَمْرِ أَشْجَارِهَا
وَاسْمُهُ يَتَحَقَّى - مَنْ التَّيِّه -
خَلَفَ اسْمُهَا؟!

لَا أَصَدِّقُ،
لَا تَسْتَطِيعُ الْجِبَالُ تُصَدِّقُ..
أَنَّ الْيَمَانِيَّ..

هَذَا الْأَسِيرَ / الطَّلِيقَ
الْقَدِيمَ / الْجَدِيدَ،
يَتَاَجَرُّ فِي عَظَمِ أَجْدَادِهِ الرَّاحِلِينَ
وَفِي دَمْعِ أَحْفَادِهِ الْقَادِمِينَ،
وَلَوْ ضَنَّكَ الْجَوْعُ أَحْشَاءَهُ
وَاسْتَوَى خَلَفَ كُلِّ الْمَلَاكِيِّ
مَنْبُذَةً قَدَمَاهُ عَلَى رَمْلِهَا.

تَأْكُلُ الْحُرَّةُ الْمَوْتَ جَائِعَةً
حِينَ لَا تَأْكُلُ الْخُبْزَ
مَنْ تَذِيهَا،

فَلِمَاذَا يَبِيعُونَهَا؟

من ينادي بسوق النخاسة؟

من يشتريها؟..

تكاثرت تجارتها.

(قال الله لآدم، بعد أن أكل من الشجرة: لِمَ أَكَلْتَهَا وقد نهيْتُكَ عنها؟
قال: يا رَبِّ أَطَعَمْتَنِي حَوَاءً. قال لحواء: لِمَ أَطَعَمْتِي؟ قالت: أَمَرْتَنِي الْحَيَّةُ.
قال لِلْحَيَّةِ: لِمَ أَمَرْتَهَا؟ قالت: أَمَرَنِي إبليسُ. قال الله: ملعونٌ، مدحورٌ.. أمّا
أنتِ يا حواءُ، فكما أدميتِ الشجرةَ، فَتَدْمَيْنَ في كلِّ هلالٍ، وأمّا أنتِ يا
حَيَّةُ، فأقطعِ قوائمكِ؛ فتمشينَ جَرِيًّا على وجهكِ، وسيشرخُ رأسكِ كلُّ
من لَقِيكِ بالحجرِ).

أين صنعاء؟

هل يذكرُ البحرُ قامتها؟

يتذكّرُ في شارعِ الشمسِ صوتَ البخورِ،

القوافلَ في رحلةِ الصَّيْفِ؟!

ما للرّمالِ تغطّي جبينَ الطريقِ

فتنفقُ خيلُ النهارِ!

الرّمالُ - هنا وهناك - على كلِّ وجهٍ

تنامُ

السَّيَادَةُ لِلَّيْلِ..

والفرحُ الطفلُ يبحثُ عنْ تَذْيِهَا

في القمامةِ

خلفَ الجليدِ،

الجليدُ تكسَّرُ

صارَ كوجهِ الحبيبةِ..

أشلاؤه تتشظى،

تسافرُ في كلِّ عاصمةٍ

منْ عواصمِ مملكةِ اللَّيْلِ،

تمسكُ ضِرْعَ (المصارفِ) والنفطِ،

ترسلُ - منْ عَرَقِ الرَّمْلِ

في سُحْبِ الفقراءِ الجِياعِ بـ(وادي القُرَى) -

مطراً تستحمُّ القصورُ الغريبةُ في مائه،

والوجوهُ النُّحاسُ..

رصاصاً تَمْنَيْتُ

لو كانتِ الكلماتُ لأَطلَقْتُهَا

في وجوهِ الذينَ يبيعونَ وجهَ الترابِ

الذي تَتَمَرَّى النجومُ عليه،

يبيعونَ هذا الجمالَ الذي تصنعُ الشمسُ

والبحر،
هذا السحاب الذي يتمدد فوق الخليج
على الجرح،
هذا الذي كان يُدعى اليمَن!

(قال آدم: يا ربّ.. إن تُبْتُ، وأصلحتُ؟ فقال الله: إذن.. أرجعكَ إلى
الجنة...).

أهذا إذن وجهها..
وجه صنعاء؟
كم يصدق الوجه في الحلم!
لكن متى لا يكذبُ الواقعُ المرّ،
من يملكُ الكلماتِ،
يحاولُ فكّ طلاسِ هذا السؤالِ
الذي يتحجّرُ في العينِ،
يثقبُها؟

علّ صنعاء تخرجُ من رَحِمِ الليلِ،
تخرجُ من رَحِمِ الكهفِ
تخرجُ من رَحِمِ الحزنِ،

تمنحُ أبناءَها الواقفينَ على البابِ،
والمبعدينَ قليلاً من الماءِ..
بي ظمأً أقطعُ السنواتِ العجافَ
ولا ماءً،
و(النَّيْلُ) بيتي،
أناُمُ على الضِّقَّتَيْنِ
وينعسُ رأسي على الموجِ
ظِلُّ النخيلِ مجاديفُ حُلُمي،
وفي (بَرَدَى) فائضٌ - والفراتِ -
من الماءِ..

لكنَّ مائي هناك
على هَضَبَاتِ (العَرِيفِ)^(١)
وعندَ (سُمارَةَ)^(٢)
حيثُ العصافيرُ ظامئةٌ يستبِيها الهجيرُ
على شجرِ (البُنِّ) تبكي،
ومنْ حولِ أشراكِها تتفارُ
تزقو..

(١) من أشهر مزارع البن في اليمن.
(٢) من الجبال اليمنية الشهيرة.

فمن يحملُ الجسدَ الشَّاحِبَ الظِّلَّ؟

من يرجعُ الماءَ للنهرِ

والنهرَ للماءِ؟

من يرتدي عُريَ أشجارها؟!

وجهُ صنعاء..

وجهُ التَّجاوزِ والحُلُمِ،

وجهُ البلادِ - النهارِ - السعيدة.

١٩٧٣م

مواجيد ليلية

إلى الصديق الشاعر زين
السقاف

- ١ -

في ساعات الليل الأولى
حينَ تصيرُ الشمسُ طعاماً للبحرِ
وللحيتانِ،

يتخضَّبُ وجهُ الغربِ دماً،
يستلقي ظلِّي في رعبٍ داخلِ نفسي
تتحسَّسُ قدماهُ العاريتانِ طريقاً ليلياً

يتساءلُ: هل ستعودُ الشَّمْسُ،

هذا الضوءُ المذبوحُ على الأفقِ الغربي،

هل يرجعُ؟

هل صاحبةُ الشَّعرِ الذَّهبي

يوماً ترجعُ؟

أعطي وجهي للريحِ

وساقي للأحزانِ،

وأمصمُصُ أشجاني المنبوذةَ في صمتٍ

مكبوتٍ،

يا للسَّاعاتِ الأولى من موتي،

من زمنِ اللَّيلِ.

- ٢ -

من يقتلني؟

أيُّ شفاهِ تشفطُ،

ما أبقى عامُ الخوفِ

وعامُ الجذبِ

على شرياني النَّازفِ،

من فطراتِ الدَّمِ المحترقة؟

هذا سيف الغربة
يتوغل في العمق،
يفتس داخل جدران الجسد الذّاوي
عن آخر أنهار الدّمغ
عن آخر أودية الفرح المذبوح..
أرحل خلف جنازتها الحمراء
ترحل ذاكرتي خلف رحيلي..
في المقهى
يتسلق أصحابي أشجار البيرة،
يتكئون على حَبِ الكأس
على لون دخان السّيجار.
ذاكرتي لا تغفو
يتنكر لي الأصحاب - المقهى،
أتسلق أشجار عذابي / أعصابي المكدودة،
يتكى القلب على وجه الحزن،
أتمدد تحت رصيف الشارع
مكشوف الخوف
عاري القدمين،
أخفي وجهي

خشية أن تعرفني أشجار الليل
المزدهمة،
أشجار تلد الأوراق الذابلة الخرساء،
أشجار لا تورق،
تتمدد في الأحشاء.

والشارع مقلوب الوجه كما كان
كما سيكون.
وبقايا ذاكرتي تتحسس صورتها
تحت الأقدام،
ورفاقي في المقهى
فوق رؤوس الأشجار
على شرفات مداخن قصر الليل.

- ٣ -

المرفأ خال..
قائمة أمواج الليل
قارب صوتي مهجور
قنديل العودة - في وجهي - مكسور
يا ذات العين (السبئية)،

أتواری - منتظراً - في ظلّ الماء؛
مُدّي جِسْراً بجديلتكِ الخضراءِ
فوقَ ضلوعِ البحرِ الأحمرِ،
صوتي مبتلُ الكلماتِ
وروحي طافيةٌ في الشَّطِّ الآخرِ،
فانتشِليني..
انتشِلي صوتي
روحي،
ضُمّي حزني، فرحي
وجهي
كي لا أطفو كالقشّة فوقَ رمادِ الماءِ.

م ١٩٧٢

الظلام يسقط على سنتياجو

تسألون، لماذا في شعره لا
يتحدث عن الأحلام
والأوراق، عن البراكين
العظيمة في وطنه الأصيل..
تعالوا لتروا الدّم في
الشوارع، تعالوا لتروا الدّم
في الشوارع.

بابلو نيرودا

الظلام،

الدّماء،

الدّماء.. الظلام،

القتيلةُ في آخرِ الأرضِ رايتُنا
والقتيلُ الذي يتلفَعُ شارتَها،
يتدَثَّرُها كفنًا،
القتيلُ هناك.. السَّلام.

* * *

منْ يغني وقد رحلوا؟
منْ يمزِّقُ فوقَ الشَّرايينِ أوردَةَ النَّايِ؟
منْ يستطيعُ المثلَ أمامَ (أبولُّو)
وقد سقطَ اللَّيلُ فوقَ مدينتِهِ،
وتخيَّرَ منْ بينِ أبنائِهِ واحدًا
كَانَ صوتَ الضَّميرِ،
الذي يمنحُ الكلماتِ طهارتَها
والحروفَ نضارتَها،
ويعيدُ لها الدفءَ
حينَ يكونُ الصقيعُ جليدًا،
وتنكفي الشمسُ
خلفَ خطوطِ الغمامِ؟
المدينةُ أسلمتِ الرُّوحَ

والديدبانُ،
وشاعرها أسلمَ الرُّوحَ،
من سيصليّ لهم؟
من يصليّ عليهم؟
حرابُ الجنودِ البرابرةِ المتخمينَ
تسيرُ على جثثِ الناسِ،
تدهسُهم عرباتٌ من القَيْحِ
والعَفَنِ الهمجِيِّ،

الظلامُ يقيمُ التَّراتيلَ
للسَّادةِ القادمينَ معَ اللَّيْلِ..
أينَ تُرى سيقيمونَ؟
أينَ تقامُ المآدبُ؟
وجهُ المدينةُ ممتقعُ اللَّونِ،
غاصتْ ملامحُها في بحارٍ من الوَحْلِ
والدَّمِ،

كلُّ الجبالِ مُدَمَّاةٌ،
كلُّ البراري حطامٌ.

* * *

سَتِيَا جُو اَعْذِرْنِي ..

اعذريني مياه المحيط

إذا كنتُ لم أَسْتَجِبْ

للنداء الذي أطلقته العصفيرُ،

ساعة دَوَّى الرِّصَاصُ المغامرُ

واختلَطَ الدَّمُ

بالدَّمِ،

ساعة أن سقطَ اللَّيْلُ فوقَ النهارِ ..

اعْذِرِي سُفْنِي ..

كيفَ أَعْبُرُ نَحْوَكِ؟

رِجَالِي فِي الْقَيْدِ

وَالطُّرُقَاتُ مُحَاصِرَةٌ بِالْجُنُودِ،

و(نَفْطُ) الْجَزِيرَةِ يَشْرَبُ صَوْتِي

يَبْعَثُهُ فِي الْفَضَاءِ دَخَانًا،

يَصَادِرُ عَشْقِي،

يَقِيمُ مِنَ الْأَعْظَمِ النَّخِرَاتِ

لِتَارِيخِ مَمْلَكَةِ الرَّمْلِ،

مَنْ رَمَمَ الْوَتْنَيْنِ أَسِيحَةً

وَتَوَابَيْتَ لِلْمَوْتِ ..

في سُرَّة الأرضِ
دَوَامَةٌ مِنْ تَوَرُّمِهِ،
يَتَقَيَّأُ جَوْفُهَا ذَهَبًا
ودموعاً
ومذبحَةً،
آه..

لو أَنَّ لي طاقَةَ الشمسِ
كنتُ اشْتَعَلْتُ، وَأَشْعَلْتُهُ
وَحَبَزْتُ عَلَى نَارِهِ
قُرْصَ شَعْبٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ الْجِياعِ
العُراةِ،
وجئتُك يا دُرَّةَ القَارَةِ الضَّائِعَةِ.

* * *

مَنْ يَغْنِي وَقَدْ رَحَلُوا؟
مَنْ يَهْزُ التَّوَابِيَتَ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ؟
مَنْ يَسْتَطِيعُ السُّكُوتَ؟
الْمَدِينَةُ تَغْرُقُ فِي الدَّمِ
تَحْتَرِقُ الْجَامَعَاتُ، الْمَصَانِعُ

أعمدة المسرح، الكتُب، الشَّعْر.

ضاق المدى

رئة الأرض لا تتنفس،

تجري الشوارع مدعورة..

سنتياجو تموت

ولكنها تنفس في رئة الشمس،

شطآنها المترامية المد تعلن عن بعثها؛

من لهيب الحرائق تولد ثانية،

قد تموت مراراً

ولكنها سوف تولد ثالثة

ثم رابعة،

لم يزل في مخازنها الطين،

والماء والنار،

والرغبات العنيفة للخلق

لم تحترق..

والذي مات - شاعرهما -

صوته يتردد في الريح،

في الشمس

في البحر:

- ها أنا ذا.. أسكنُ الرِّيحَ

والشمسَ،

في زَبَدِ البحرِ.. في موجِهِ

في هديرِ المناجمِ،

قادمةٌ سفني

والقصائدُ راجعةٌ.. راجعةٌ.

* * *

الدَّماءُ تسيلُ

الشَّوارِعُ تجري بلا هدفٍ،

تتعرَّى الحمامةُ من ريشِها

تتحوَّلُ صقراً بمنقارِهِ يثقبُ الحائطَ / اللَّيْلُ،

يرحلُ في جسدِ الشمسِ

يغمسُ في لونها ريشَهُ..

فتعودُ الحمامةُ حاملةً رايةَ الوطنِ

الراكعةُ،

يسقطُ اللَّيْلُ

تنتفضُ الجِنَّةُ الوادعةُ!

الظلام.. الدماء،
الدماء.. الظلام،
القتيلة في آحر الأرض رأيتنا
والقتيل الذي يتلفع شارتها
يتدثرها كفنًا،
القتيل هناك.. السلام!

حواريّة عن الفقر

"لو كان
الفقر رجلاً لقتلته"
علي بن أبي طالب

الشاعر: من يقتله...؟
ها هو ذا يرتاد الحارات المقهورة،
ممتطياً فرس الجوع

وممتشقا سيفَ الأحرانِ.

يذبَحُنَا أطفالاً وشيوخاً

يحيا في الأقبية السوداء.

يتجَوَّلُ في الأحياءِ المزدحمة

لَمْ لَمْ تَقْتُلْهُ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ!؟

سيفُكَ كَانَ طويلاً

يُخْرِجُ مِنْ صَفَحَاتِ الْقُرْآنِ..

سيفي مَا أَقْصَرَهُ

يُخْرِجُ مِنْ شَفَتَيَّ إِنْسَانٌ

لَا حَوْلَ لَهُ، لَا شَأْنُ.

علي بن أبي طالب: سيفي كَانَ طويلاً

لَكِنَّ الْفَعْلَ قَصِيرٌ

فَلْيَغْفِرْ لِي سَيْفِي،

شَفَتَاهُ الظَّامَتَانِ لِكَأْسِ طَافِحَةٍ

بِدِمَائِ الْفَقْرِ

لَمْ تَرْتَعْشَا يَوْمًا

لَمْ تَغْتَسِلَا بِمِيَاهِ الشَّقَقِ الْأَحْمَرِ

يَا وَيْلِي ضَيَّعْتُ الْأَيَّامَ سُدًى

لم أَتَبَيَّنْ فِي الظُّلْمَةِ وَجَهَ الْخَصْمِ..
كَانَ الْفَقْرُ فَتًى إِقْطَاعِي الدَّمِ،
يَحْيَا فِي قَصْرِ مَسْحُورِ الشُّرُفَاتِ
يَتَزَوَّجُ خَمْسًا،
يَسْتَحْلِبُ أَشْجَارَ (الْقَاتِ)..

سيفي وأنا
كُنَّا نَبْحَثُ عَنْهُ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ
فِي سَاحَاتِ الْجُوعِ الْمَكْتَنِّطَةِ،
هَذَا هُوَ ذَا يَزْرَعُ أَشْجَارَ الْبُؤْسِ
يَبِيعُ رَمَادَ الدَّمْعِ..
مَنْ يَرْغَبُ مِنْكُمْ فِي قَتْلِ الْفَقْرِ..
فَلْيَقْتُلْهُ - هُنَا -

فَوْقَ مَوَائِدِ أَصْحَابِ الْمَالِ،
فِي سَهَرَاتِ (التَّائِبِجُو)
فِي حَفَلَاتِ الْأَزْيَاءِ.

الشاعر: هل كَانَ الْمَوْتُ طَرِيقَ الْفَقْرِ،
أَمْ كَانَ الْفَقْرُ طَرِيقَ الْمَوْتِ؟
عَلَّمْنَا يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ.

علي بن أبي طالب: الموتُ الفقْرُ - الفقْرُ الموتُ،
منْ يَسْلِبْكَ اللُّقْمَةَ يَسْلِبْكَ الرُّوحَ،
منْ يَنْزِعْ عَنْكَ الثَّوبَ
يَنْزِعْ عَنْكَ الْجِلْدَ..
هذا (ألفُ) الأشياءِ
(أبجدُ) أسفارِ العُمْرِ.

اليمن.. الحضور والغياب

في لساني يَمَنُ
في ضميري يَمَنُ،
تحتِ جِلْدِي تعيشُ اليمنُ
خلفَ جَفْنِي تنامُ

وتصحو اليمَن،
صرتُ لا أعرفُ الفرقَ ما بيننا..
أئنا يا بلادي يكونُ اليمَن؟!

* * *

حينَ تبكينَ
أسقطُ دمعاً على راحةِ الحزنِ
يحملُني الحزنُ شارةَ حبٍّ،
يسافرُ بي لعصورِ الكآبةِ
والألمِ السَّرمدي
فأعودُ إليكِ على زورقٍ منْ شَجَنٍ.
حينَ تترحلينَ يصيرُ دمي لغةَ الشوقِ
يكتبُني الرَّاحلونَ - المقيمونَ،
أدخلُ فيكِ،
وتنحشرينَ - هنا - في تضاريسِ وجهي،
تصيرينَ - أنتِ أنا - لغةَ الرَّفْضِ والمنحِ
والدمعِ والضَّحكاتِ،
تصيرينَ نافذةً للنجومِ التي تتغرَّبُ
باحثةً عن وطنٍ.

حينَ تحتَضرينَ أموتُ..

يُصدِّرنِي الموتُ للعالمِ الأسفلِ
المظلمِ القاعِ،

يشربُنِي العَدَمُ المرُّ
يأكلُنِي..

حيثُ لا قبرَ لي، لا وطنَ.

* * *

الحضُورُ، الغيابُ

الترابُ، الدَّمُ

الشمسُ، فاكهةُ الزمنِ المشتهاةُ،

الجبالُ، النهودُ التي أنضجتُها قرونُ

التَّشَهِّي،

منَ الرملِ تمتدُّ خاصرةُ الشمسِ

حرفاً منَ (المسندِ) العربي..

منَ تُرى صَيَّرَ الحرفَ حرفينِ

فاغتالَ أعلاه..

صَيَّرَهُ أعجمياً،

يجيدُ التَّلَاعِبَ بالبنكنوتِ المزيَّفِ،

في موكبِ (العَمِّ سام) يُطاطئُ هامتهُ
ويسيرُ بلا رأسٍ.. اختَرَّها الذُّلُّ،
منْ أوقفَ المهرةَ / النَّارَ عَنْ زَحْفِهَا،
واستوى فوقَ عرشِ الخيانةِ
يستمنحُ (الفرسَ) جيشاً
وأجنادهُ في البراري حُفاهُ؟!
منْ يقدِّمُ (صنعاءَ) تُفاحَةً
فوقَ مائدةِ القتلِ؟
منْ يشتري بجماجمِ أبنائها
خِدرًا
وسجائرَ للقادمينَ معَ الليلِ؟
ماذا تقولُ المدينةُ؟
لا شيءَ..
أَلَقْتُ بِجُثَّتِهَا لِلْسَّكَاكِينِ
واستسلمتُ،
خلعتُ في الرَّبيعِ أنوثتها،
وبكتُ في انتظارِ الشِّتاءِ.

* * *

يَمُنُّ وَاحِدٌ..

عشتُ أحمُلهُ - راحلاً ومقيماً -

على ساحةِ العينِ..

ماذا يقولون؟

صارتْ مُجَزَّاةَ القلبِ

مكسورةِ الوجهِ،

صارَ اسْمُها في المحافلِ (صنعاء) يوماً

ويوماً (عدن).

لا أَصَدِّقُهُم!

فَهِيَ واحدةٌ،

كلَّما أَتَخَنَتْ في الترابِ السَّكاكينُ..

أدْمَى الترابُ السَّكاكينَ،

وانْدَمَلَ الجرحُ

واسترجَعَ الجسدُ اليميني الممزَّقُ أبعادهُ،

شكَّلهُ

واستدارتُهُ،

نَهَضَتْ مِنْ خِرائِبهِ المقفراتِ اليَمَنُ.

الطفل.. والمغني الغريب

- ١ -

كانَ طفلاً شقيّ الملامح،
أبناءؤه يكبرونَ
يشيخونَ،

يبتلعُ الموتُ أحفادهُ..

وهو طفلٌ يراوغُهُ الموتُ

ترضعُهُ الأرضُ نارَ بكارِتها،

قدماهُ على كبدِ الطينِ

موثقتانِ إلى صخرةِ اللَّيلِ..

مدَّتْ له الرِّيحُ قامَتَها

فاستوى..

قدماهُ على الماءِ

صارَ اسمُهُ قمرًا

صارَ شمسًا،

ولكنَّهُ عادَ طفلًا..

لماذا يبعثرُ أيَّامُهُ في الطفولةِ؟!

صارتْ له قدمانِ مِنَ الماءِ

والنارِ،

كَفَّ مِنَ الرِّيحِ

وجهُهُ مِنَ الشمسِ،

صوتُهُ مِنَ العاصفةِ.

متعباتُ خطايَ على الرَّمْلِ
مرهقةٌ كلماتي،
كأنَّ الحروفَ مُدَيٍّ وَدَمَامِلُ،
موغلةٌ في عروقي
تُمزِّقُ صدرَ النهارِ
تضاعفُ من زحمةِ اللَّيلِ.. تشرخني.
مهرةُ الحُلُمِ مُدَيٍّ جدائلِكِ الحُضُرِ
نحوي،
لعلَّ حبالَ الظلامِ
التي كالشعابينِ تلتفُّ من حولِ خاصرتي،
عَلَّها تتناثرُ،
يدركُها السَّأَمُ المرُّ
يذبُّها خنجرُ الانتظارِ.

- ٣ -

المشانقُ تنبتُ حولي..
أمامي وخلفي،
وأشجارُها في الفضاءِ القريبِ معلقةٌ،
تتدلى نهاراً وليلاً

شتاءً وصيفاً،

نذرتُ دمي، كلماتي

حياتي وموتي له،

وَهُوَ يَلْهُو بِأَشْلَاءِ أَبْنَائِهِ

بانتصارِهم

بانكسارِهم!

ذلكَ الطفلُ..

شابتُ على كَتِفَيْهِ النجومُ،

وشاختُ ضُرُوعُ الدُّمُوعِ

وما زالَ طفلاً

يَحْطُّمُ رَأْسَ التَّقَالِيدِ

والْحِكْمَةَ المَيِّتَةَ،

ويحْطُّمُهُ الجوعُ

والْحِكْمَةُ المَيِّتَةُ.

- ٤ -

منْ يَعِيدُ البراءَةَ للقمرِ الطفلِ؟

منْ يَرْجِعُ السُّحُبَ الممطراتِ إِلَى الرَّمْلِ؟

منْ يَحْمِلُ السَّيْفَ فِي وَجْهِ لَيْلِ الصَّحَارَى

وَيَغْسِلُ وَحَلَ التَّسْوُلِ

عَنْ وَجْهِ مُهَرَّتِنَا؟

أَيُّهَا اللَّيْلُ قِفْ

أَيُّهَا اللَّيْلُ قِفْ..

مَنْ يَبَارِزُنِي؟

هَكَذَا تَصْرُخُ الْكَلِمَاتُ!

فِيخْضِرُ سَيْفُ الْجِياعِ،

تَطُولُ حَرَابُ التَّمَرُّدِ..

هَا هُوَ ذَا الشَّعْرُ

تَمْضِي مَوَاكِبُهُ لِلْقِتَالِ،

وَمَنْ تَحْتَ رَايَاتِهِ تَسْتَقِرُّ الْجَمَاهِيرُ

صَفًّا،

وَيُخْرِجُ مَنْ صَمْتِهِ الشَّعْبُ

تَوَلَّدَ مِنْ عُقْمِهَا الْوَرْدَةُ الْنَافِرَةُ.

من حوليات الحزن الكبير^(٥)

السنة الأولى:

من آخر الدنيا أتيتُ حاملاً حزنَ النجوم، وجَع الأرضَ، ودمعَ
أهلها. تاهَ بي الطريقُ، لا دليلَ غيرَ خيطٍ من دمٍ لشاعرٍ مثلي، مضى ولم

^٥ في الذكرى التاسعة لرحيل شاعر اليمن الكبير الأستاذ محمد محمود الزبيري.

يَعُدُّ. أشعارُهُ منسيَّةٌ على جوانبِ الطريقِ شجراً ييكى... لا يجدُ المأوى،
وصوتاً يسكنُ الصَّحارى، لا تطيقُ الرِّيحُ حملَهُ، واللَّيلُ لا يطيقُ ظلَّ النورِ
في حروفِهِ اليابسةِ الدِّماءِ.

السنة الثانية:

من آخرِ الدُّنيا
أتيتُ في يميني نجمةٌ تخبو
فيكسوني رمادُها حزناً،
وفي يساري نجمةٌ تشعُّ فرحاً
من أجلِّها أعيش
في أحلامِها أحياء،
وأكتبُ القصائدَ النَّجوى،
أجولُ في القرى الموحشةِ الأسوارِ،
بي جَسارةُ الفَجْرِ
وعُمقُ النهرِ...
ودأبُ الفُصُولِ.

السنة الثالثة:

أينَ انتهى بِه السَّيرُ،

المسافر الذي مضى ولم يَعُدْ؟!!

أَسْأَلُ عَنْهُ الْقَمَرَ الشَّاحِبَ، وَالسَّحَابَةَ الَّتِي تَرْكُضُ مِنْ خَلْفِ الْجِبَالِ
السُّمْرِ.. دَمُهُ عَلَى ثَوْبِي، وَنَعَشُهُ فِي الْعَيْنِ، وَالْقَبْرُ الَّذِي احْتَوَاهُ يَحْتَوِينِي، غَيْرَ
أَنْنِي أَسْمَعُهُ فِي الشَّجَرِ الَّذِي يَبْكِي، وَفِي النَّهْرِ الَّذِي يَسِيرُ غَاضِبًا؛ أَلْمُحُ
وَجْهَهُ الضَّاحِكُ فِي حَجَارَةِ الْمَسْجِدِ، فِي مَآذِنِ الْمَصْنَعِ، فِي عَيُونِ طِفْلِ يُولَدُ
الْيَوْمَ وَفِي نَشِيدِهِ الَّذِي سَوْفَ يَقُولُهُ غَدًا لِلسَّنَوَاتِ الْقَادِمَةِ.

السنة الرابعة:

أَصْرَحُ حِينَ تَمَضُّعُ الْأَحْزَانُ

خَبَرَ أَيَّامِي،

وَتَوَرَّقُ التَّجَاعِيدُ عَلَى وَجْهِي:

مَنْ يَشْتَرِي حَزَنِي؟

فَأَلْمَحُ الْقُصُورَ تَفْتَحُ الْأَبْوَابَ، وَأَرَى الْعَيُونَ الزُّرْقَ وَ(العِقَالَاتِ) تَشْدُ
رَأْسَهَا نَحْوِي... أَسْقَطُ فِي بئرٍ مِنَ الْحَزَنِ الْعَمِيقِ، تَبْرُقُ الْعَيُونَ الزُّرْقُ..
أَسْتَعِيدُ صَرَخَتِي، أَبْصُقُ فِي كُلِّ الْجِهَاتِ جَائِعًا، أَهْرُبُ مِنْ صَلَاصِلَةِ النُّقُودِ،
أَحْتَمِي بِحَزَنِي لَنْ أَبِيعَهُ بِمَالِ الْأَرْضِ.. لَنْ أَبِيعَهُ بِفَرَحِ اللَّيْلِ.. لِأَنَّهُ أَنَا،
يَقِينِي، وَطَنِي، وَوَجْهَهُ كُلِّ مَقْهُورٍ وَكَادِحٍ عَلَى تَرَابِ أُمِّي، حَيْثُ كُنْتُ
وَالرِّفَاقُ فِي طُفُولَتِي نَلْعَبُ.. نَجْبُلُ الطِّينَ قَلَاعًا، وَنُسَوِّي الصَّخَرَ فُرْسَانًا،
وَنَبْنِي حَوْلَنَا الْأَسْوَارَ وَالْخِيَامَ.

السنة الخامسة:

يكبرُ جرحُ الوطنِ المغدورِ

في صدري،

لا أستطيعُ حَمَلَ رايةِ الأُحزانِ

أو صليبِ النَّفْيِ،

في دمي أسمعُ صوتَ الموتِ قادماً

لكنني أراه - ذلك الذي مضى ولم يَعُدْ -

ألمسُ كَفَّهُ،

ها هو ذا يُلبسني في ساعةِ الأشجانِ

بُرْدَةَ الشَّعْرِ،

يقولُ لي:

هذا هو الشعرُ انطلقَ على مُهَرَّتِهِ، ازتَحلَّ إلى عوالمِ الخَلْقِ البعيدةِ

المدى، لن يدركوكَ.. وهناك حيثُ لا عينٌ رأت، ولا... الحزنُ يغدو فرحاً،

واللَّيلُ خندقاً يُخَفِّي جنودَ الشمسِ..

جسراً يعبرونهُ إلى النهارِ.

السنة السادسة:

الطَّرْقُ لا يلدُن..

سوفَ يستمرُّ الطَّرْقُ،
سوفَ يشتدُّ مع اقترابِ ساعةِ الصُّفرِ،
المدى يضيقُ بينَ حُلْمِنَا وَحُلْمِنَا..
أفراحنا على الأبوابِ
لم تزلْ ضحايانا كثيرةً
لكننا على الأبوابِ،
نفقدُ فارساً هنا
تستقبلُ الشمسُ
حزينةً جثمانه
تُواريه جفونها،
يسقطُ خائنٌ هناك..

حينَ يهوي يخلعُ اللَّيلُ عليه ثوبه الدّامي... تبتلعُ الصَّحراءُ رأسه
على رمالها الصَّفرَاءِ، ينطفي بريقُ الثَّمنِ الذي باعَ به حقولَ
الشمسِ، والمصانعَ التي تمتدُّ منْ ضفافِ نهرِ الحُلْمِ حتى شاطئِ
النجومِ.

السنة السابعة:

عامٌ مضى
وآخرٌ مضى،

سبعة أعوام مضت، وذلك الذي سارت به سفينة الدّم مضى، ولم
يعدّ.. زيت المصابيح حديثه،
أشعاره قوت القلوب
وغذاء الشعب،
في حدائق النهار تنمو شجراً
على نوافذ البيوت أزهاراً
وفي عيون الناس إصراراً،
وصوته يسقط دمعاً
على مقابر الذين رحلوا
ولم يعودوا..
جفّفوا نشيجكم يا أيّها الباكون حول الدمعة / الصوت..
ألا تصدّقون؟!
الدمعة / الصوت تقول:
في غدٍ ينفلق الحرف يصيرُ بسمةً، حين يصيرُ الشعبُ شعباً؛ لا
قطيعاً، ويعودُ الراحلون في مواكب التحرير.

مارس ١٩٧٣م

تقاسيم على
قيثارة مالك بن الرّيب

إلى الأصدقاء الشعراء من
فلسطين المحتلة: أحمد
دحبور، محمد حسيب
القاضي، عبد البديع محمد

يوشكُ الآنَ

أَنْ يَنْتَهِي زَمْنُ الْوَصْلِ وَالْفَصْلِ،

أَنْ يَنْتَهِي زَمْنُ الْخَيْلِ وَاللَّيْلِ،

أَنْ يَنْتَهِي بَيْنَنَا.

- مهرتي وأنا، كلُّ شيءٍ.

توشكُ النارُ في الجسدِ المتألم

أَنْ تَنْطَفِي

أَنْ تَعُودَ إِلَى نَهْرِهَا..

مهرتي تركضُ الآنَ عاريةً،

هيَ تَمْضِي جَنُوباً

وَأَمْضِي شَمَالاً،

تَطَارِدُ ظِلَّ الْغَزَالَةِ

أَمَّا أَنَا فَيَطَارِدُنِي اللَّيْلُ

يَلْحَقُ بِي،

أَسْمَعُ الْآنَ رَجْعَ حَوَافِرِهَا

فَوْقَ صَخْرِ الزَّمَانِ

أَرَى صُورَتِي فِي الصَّدَى،

وَأَرَانِي فَتًى تَتَأَلَّقُ أَحْلَامُهُ

يَتَسَلَّقُ خَارِطَةَ الثَّوْرِ الْبَكْرِ،

يَنْتَرَعُ الشَّمْسَ مِنْ أَفْقِهَا

ويقدمُها للحبيبة مَهْرًا،

أراني أنازلُ بالكلماتِ

وبالسيفِ غولَ الخرافةِ،

أسخرُ مِنْ كلِّ ما كتبوا

أتقيأُ كلَّ الذي قَلَّتهُ، ويقولونَ

أسخرُ مِنْ لغتي

وتضاريسِ وجهي،

مِنْ اسمي وعائلتي.

مهري تركضُ الآنَ عاريةً

يتلاشى الصَّدَى فوقَ صَخَرِ الزَّمانِ

فأسمعُ صوتَ أنيني:

بكى الشَّعْرُ مرثياً، وأجهشَ راثياً
 تفرَّحَ في ليلِ المآسي جبينُهُ
 تأبَّطَهُ مَنْ لا يطيقُ احتراقَهُ،
 ولي في سماءِ الفنِّ منه عرائسُ
 بـ(وادي الغضا) غنَّيتُ للحبِّ غنوةً
 وحينَ دعاني الموتُ لبَّيتُ صوتهُ
 لماذا يموتُ الشَّعْرُ في عنفوانِهِ،
 تطاردهُ (زرَقُ العيونِ) وعُزُّها
 يطوفُ حوَالِيهِ وحيداً فلا يرى
 أيركعُ؟ لا.. مهما يكنْ عُنْفُ ليلِهِ
 وأمطرَ مَنْ نارِ الدموعِ القوافيا
 وأجذبَ أبعاداً، وجفَّ مبانيا
 وعانقَهُ مَنْ لا يجيدُ التَّلَاقيا
 تقيمُ على خدِّ النجومِ المراقيا
 تناقلَهَا الشَّرْقُ المَعْنَى لاهيا
 بقافيةٍ، كادتْ تشقُّ المآقيا
 ويسقطُ حرفُ اللهِ ظمَّانَ باكيا؟
 تساومُ فِيهِ الموقفَ المتساميا
 سوى اللَّيْلِ طَوَّافاً عَلَيْهِ، وساقيا
 فما زالَ موتُ النفسِ، للنفسِ شافيا

استغاثاتُ (يافا) تحاصرُنِي

توقظُ الجسدَ المتألمَ من موتِهِ،

كلَّما أطبقَ الموتُ أجفانَهُ،

أيقظتُهُ رياحُ النِّشيجِ،

يصيرُ النشيجُ دماً

يفتحُ الدَّمُ نافذةَ الذِّكرياتِ..

أراها..

ينامُ على صدرِها (العَجْرُ) القادمونَ

مَعَ اللَّيْلِ،

أَبْنَاؤُهَا لَا يَطِيقُونَ رَوَيْتَهَا

يَرَفُضُونَ الْوَصَالَ،

وَمَنْ دَمِهَا يَكْتُبُونَ الْقَصَائِدَ عَشْرِينَ عَامًا،

وَيَحْتَفِلُونَ بِأَحْزَانِهَا كُلَّ يَوْمٍ

عَلَى حَائِطِ الْكَلِمَاتِ الشَّرِيدَةِ..

أَصْرُخُ:

هَا هُوَ ذَا يَا (ابْنَ عَقَّانَ) بَابُ الْجِهَادِ،

وَهَذِي ثَغُورُ الشَّامِ عَلَى اللَّيْلِ مَفْتُوحَةٌ..

تَتَمَزَّقُ حَنْجَرَتِي،

وَعَلَى الْقُرْبِ وَجْهُ (خُرَّاسَانَ) يَضْحَكُ

مَنْ وَجَعِي،

وَالنَّجُومُ الْمَسْدَسَةُ الْحَدَّ

تَجْرُحُ وَجْهَ مَآذِنِ (يَافَا)،

وَفِي اللَّيْلِ تَخْبُو سَيُوفُ (ابْنَ عَقَّانَ)،

يَبْتَلَعُ الرَّمْلُ صَوْتِي

وَأَسْقُطُ فِي جَرَحِ ذَاكَرَتِي:

أَرَى وَجْهَ (صَنَعَا) فِي النَّجُومِ مَعَاتِبًا وَأَقْرَأُ فِي الْخُلُمِ غَضَبَانَ شَاكِيَا

بقلبٍ أناجيها فيورقُ جَفْنُها
 حملتُ هواها في ضميري، وفي دمي
 فصنعاءُ أمُّ الشعرِ والشوقِ والهوى
 إذا نَسِيتُ حُبِّي، ونهرَ قصائدي
 وهبتُ لها وجهَ الشبابِ، وهذه
 ينافسني في حُبِّها الفَجْرُ والضُّحَى
 أظِلُّ بنارِ الشوقِ أشوي عواطفي
 كتبتُ بدمعِ القلبِ أسفارَ شوقنا
 فلم تستثر صمتَ الجبالِ، ولم تُثِرْ
 دموعاً، وتنسى في الضلوعِ المناجيا
 زرعْتُ لها شمساً ونهراً وواديا
 وكانت - وما زالت - هوانا المثاليا
 فإنَّ هواها في دمي ليسَ ناسيا
 بقيَّةُ ماءِ العمرِ، أسفحَ راضيا
 ويبقى إليها القلبُ عَرْثانَ صاديا
 حيناً، وأشوي في الحنينِ فؤاديا
 إليها، وناجيتُ الحسامَ اليمانيا
 بأحزانها، عَبَرَ البحارِ، الموانيا

مَنْ بَعِيدٍ يُدَوِّي الرِّصَاصُ المِغَامِرُ
 كلُّ الشَّبَابِيكِ مَقْفَلَةٌ،
 وَعيونُ المساءِ رَمَادِيَّةُ اللَّوْنِ
 مَثْقَلَةٌ بِالْجِرَاحِ النُّجُومُ،
 تَعُودُ العَصَافِيرُ مَغْسُولَةً بِدَمِ النَّخْلِ
 وَالْمَوْتُ يَفْتَحُ بَوَابَةَ الشَّرْقِ
 تَلْمَعُ أَنْيَابُهُ..
 حُبُّنَا الْعَرَبِيُّ ذَوَى،
 مَاتَ وَالْبَحْرُ،
 طَالَ انْتِظَارُ الْبِرَاعِمِ.

كَانَ الزَّمانُ يمدُّ يداً

ويشدُّ يداً،

والرَّصاصُ يصفحُ (عَمَّانَ)

و(الْقُدْسُ) تدفنُ أحزائها في عيونِ الترابِ

الجريح،

تنادي ولا صوتَ

كَانَ (البُرَاقُ) يعودُ فلا يجدُ الصَّخْرَةَ / الأرضَ،

أَيْنَ يحطُّ الجناحُ،

بكى كجوادي غداةَ الفراقِ

وألقي متاعَ النبوةِ عن ظَهْرِهِ،

ومضى يذرُّ الأفقَ

بحثاً عن الصَّخْرَةِ الضَّائعةِ.

هُوَ ذا يركضُ الآنَ حَوْلَ (دمشق) الجديدةِ

(عَمَّانُ) تغتالُهُ،

وشوارعُ (بيروت) ترفضُهُ..

أَيْنَ يخفي الدموغَ

وقد أثقلتُهُ المواجهُ؟

أَيْنَ ينامُ (البُرَاقُ) الجريحُ؟!

نهارٌ تحدّى، بالشموس، الليالي
وأقرأ فيه، كلَّ يومٍ، مُعاديَا
كما بعثرَ الصيفُ الرَّمالَ السَّوافيا
"كأنَّ لم تَرَ قبلي شريداً يمانيا"
وأبكي بلا عينٍ، وأحسو بُكائيا
وويلي إذا ما عدتُ يوماً ورائيا
رفيقاً، وإنَّ حاربتُ كانَ حُساميا
و(بغدادُ) نجمٌ صارَ في الأفقِ خابيا
مآذها مُستَسَلِماتٍ، بواكيا
لفاتنة القلبِ الطبيبِ المداويا

يحصرنِي ليلُ الزَّمانِ، كأنني
ويفجأني، في كلِّ يومٍ، بغارةٍ
يبعثرنِي في ساحةِ الحزنِ كُفُّهُ
وتضحكُ مِنِّي، كلُّ دارٍ شريدةٍ
أصيحُ بلا صوتٍ، وأشكو بلا فمٍ
أمامي جحيماً لا أطيعُ اقتحامَهُ،
وقد خانني الشَّعْرُ الحنونُ، وكانَ لي
(خُراسانُ) تلهو بي، و(عَمَّانُ) محنتي
و(صنعاءُ)، ما (صنعاءُ) ألمحُ في الدُّجى
تقرَّحَ وجهي في الشُّعوبِ، ولم أجدُ

جسدي يذبلُ الآنَ

تبتلُّ في دمعِهِ الكلماتُ،

و(وادي الغضا) ليسَ يدنو..

لمنْ أهبُ السيفَ..

هذا الذي أرضعتهُ الحروفُ على صَهَوَاتِ اغترابي،

وكانَ رفيقي إذا عرِبدَ اللَّيلُ في رحلي

واستنامتُ عيونُ الرِّفاقِ؟

مهرتي لم تعدْ غيرَ ذِكْرى،

يحصرنِي النومُ

ها أنا ذا نمتُ
مِتُّ
انتهى جسدي،
أصبح الوقتُ للموتِ
لا وقتَ للشَّعرِ
لا وقتَ للحربِ..
فلترْكُضي مُهْرَةَ الفَجْرِ،
مُدِّي الخطي.
أيُّها السيفُ نَمْ
أيُّها الشعرُ نَمْ،
واسترخِ يا جواذ.

م ١٩٧٤

إلى عيون (إِلا) اليمانيّة

- ١ -

أنتِ ما أبصرُ الآنَ
ما كنتُ أبصرُ بالأمسِ،
عيناكِ ضوئي
ووجهكِ نافذتي..
ودليلي
إذا سألوني عن اسمي أشيرُ إليكِ،
وإن سألوني الجوازَ نشرْتُ على جسدي
وجهكِ العربيَّ المرقَّعَ بالجوعِ..

أنتِ أنا
يتكلَّمُ في شفتي صوتكِ الواهنُ
الحرفِ

لا صوتَ لي،
صرتِ وجهي وصوتي،
وعينَ غدي
يا أميرةَ حُبِّي وحُبِّ الزَّمانِ.

- ٢ -

في المساءِ تجيئينَ عاريةً

لتنامي - هنا - بينَ صدري

وقلبي،

وتغتسلينَ بماءِ الحنينِ..

فماذا جرى يا نبيذي

وقاتي،

يطاردُني اللَّيْلُ يَنْسَلُ في جسدي،

وبطيئاً..

بطيئاً يَمُرُّ الزمانُ

وأنتِ هناكَ بعيداً..

بعيداً،

يجيءُ المساءُ فلا تحضرينَ؛

لماذا تأخَّرَ وصلُّك؟

هل أفسدَ اللَّيْلُ ما بيننا

أم أعاقَكَ رملُ الصَّحارى؟

تعالِي..

فهذا هوَ الأفقُ يمتدُّ منتظراً

والشبابيكُ مفتوحةٌ

وسريرُك خالٍ

وريحُك تعبقُ،

فأنهمري..

إنَّ وجهكِ ينتشرُ الآنَ في حُجرتي

شجراً، ووروداً

وحقلاً منَ (البُنِّ)

نافورةً منَ حنانٍ.

- ٣ -

أيُّها القادمونَ

وفي صدرِ أثوابِكُم منَ روائحِ (إلزا)،

دعوني أعانقُ في عِطْرِها نخلةَ الشوقِ

أشربُ منَ لونها قهوتي،

قبلَ أنْ يأتيَ المخبرونَ فينتزعوا شفتي،

وتفتشَ أقدامُهم عنَ مواطنِ أسرارِها

في دمي،

قبلَ أنْ يغسلَ الدَّمْعُ أثوابَكُم،

وتضيعَ ملامحُ (صنعاء)

بينَ رمادِ العيونِ
وصمتِ المكانِ.